الرموز الإسلامية في الإبداع الشعري المعاصر

ديوان الزحف على حد المستحيل نموذجا

لوحة فنية ممتدة، عبر قصيدة كاملة، تحولت فيها اللحظة التراثية، إلى لحظة رمزية غنية بالإيحاءات والدلالات، لحظة مستقبلية تكاد تصرخ ثورة وتمردا على صمتها الموحش وحصارها الكئيب، عبر مئات السنين في إطار الشروح والحواشي وعجز الرؤية التقليدية لإيحاءات الرموز القرآنية، عن استكناه الدلالات الخصبة الغنية بإشارات الثورة والتفجير في رمز (الطير الأبابيل) التي ترمي (أبرهة) وجيشه بحجارة من سجيل فتجعلهم كعصف مأكول.

د. سعد دعبيس - مصر

لقد ظل رمز الطير الأبابيل، بعيدا عن الرؤية الإبداعية الخلاقة في مجال الشعر والفنون الجميلة الأخرى.. وظلت إيحاءاته الفياضة بالدلالات الجمالية، حبيسة الرؤية التقليدية، دون أن يكتشف المبدعون سحرها الإيحائي، وروعتها الجمالية، ويعيدوا توظيفها.. من جديد في بناء فني معاصر يحاول إعادة تشكيل هذا العالم من جديد..!

إن الله لم يرسل لإهلاك جيش أبرهة صواعق أو براكين أو طوفانا، وإنما أرسل إليه الطيور التي هي رمز الحب والسلام، لتكون نهاية جيشه المتجبر المغرور، على يد هذه الطيور الوديعة المسالمة، وليكون ذلك إيحاء مستقبليا للأجيال القادمة، من المؤمنين المستضعفين في الأرض، أن مناقير الطيور الوديعة، يمكن أن تتحول إلى قوى تدميرية رهيبة.. يمكن أن تتحول إلى ما هو أخطر من الصواريخ والدبابات، وأن المستعمرين المغلوبين في الأرض، يمكن أن يصبحوا سادة الأرض، عندما يمتلكون ما هو أخطر من ترسانة الأسلحة النووية.. عندما.. يضيء الإيمان قلوبهم..!

إن إعادة اكتشاف الرموز التراثية، وإعادة تشكيلها من جديد، يمثلان معلمين من أهم المعالم التي تصادفنا حين نقرأ قصيدة (الزحف على حد المستحيل) وهي فاتحة قصائد ديوان يحمل هذا العنوان

نفسه للشاعر (يس الفيل).. لقد أعاد ذلك الشاعر اكتشاف بعض الرموز التراثية، وأعاد تشكيلها من جديد، هذا ما نجده مشرقا ومتألقا في توظيفه لرمز الطير الأبابيل التي ترمي بحجارة من سجيل، وما نجده أيضا في توظيفه لرموز تراثية أخرى. لقد أصبح رمز الطير الأبابيل في قصيدة (الزحف على حد المستحيل) محورا لعديد من الصور الفنية التي تتمحور كلها حول محور واحد هو : ثورة الطيور المسالمة الوديعة.. ثورة أحباب الله.. أطفال القدس.. ثورة المستضعفين في الأرض..!

إن رمز الطير الأبابيل رمز تراثي قرآني.. يحفظه أبناؤنا منذ طفولتهم، ويحفظه الكثيرون والكثيرون من الكبار والصغار.. فماذا فعل بهذا الرمز شاعر يمتلك شاعرية مبدعة كشاعرية يس الفيل؟ لقد جعل الرمز التراثي في السورة القرآنية نسيجا روحيا، ممتدا.. متناغما.. عبر لوحة فنية تنساب خطوطها وألوانها، وأضواؤها وظلالها انسيابا سحريا في أثناء قصيدة، يمكن أن نقول : إنها تقترب من الطابع الملحمي، حين تصور بطولة شعب أعزل، في مقاومة دولة استعمارية تمتلك ترسانة نووية، وتمتلك أيضا تواطؤ القوى العظمى المسيطرة في هذا العالم..!

إن لوحة الطير الأبابيل، وما فجرته من صور فنية تمحورت حولها، استطاعت أن تشيع في النص جوا أقرب إلى أن يكون أسطوريا، وإن اختلف عن التشكيل الملحمي الأسطوري في الملحمة الإغريقية. وأي أسطورة أعجب وأغرب.. من أن تتصدى الطير الأبابيل لجيش (أبرهة) وأطفال الحجارة لترسانة الأسلحة النووية الإسرائيلية ؟؟ وإذا كان رمز الطير الأبابيل التي ترمي بحجارة من سجيل، قد أوحى بتفجير الموت والدمار في جيش أبرهة، فإن هذا الرمز نفسه، يتحول في قصيدة (الزحف على حد المستحيل).. إلى عشرات الصور الفنية التي تفجر كل صورة منها صورة أخرى والصورة الأخرى تفجر بدورها صورة أخرى وأخرى..! ولنتأمل نماذج من هذه الصور العنقودية، التي هي أقرب إلى قنابل عنقودية، تفجر كل قنبلة منها آلاف الشظايا :

شاخت الغربان.. وانقضت على
الغدر البلابل..!
أحرق الغيظ السلاسل..!
والعصافير استماتت.. لم تخف
عصف القنابل..!

والشاعر يستهل لوحته الفنية المتفجرة ثورة وغضبا، بصورة تمهيدية – أو مدخل لملحمة ثورة عصافير الحجارة:

اسألوا القضبان.. كيف امتصت
العمر المناضل
اسألوا الأرض التي كم أتخمت
بالدم
والزرع المضرج
واسألوا خضر السنابل
اسألوا.. حد المناجل
يا عصافير المنايا
أرضعوك السخط
صبوا في المناقير اللظى..
ألقوا على الأعشاب (نابالما)
وسدوا خلفهم.. كل المداخل..!

ثم يعقب هذه الصورة التمهيدية، صورة محورية، تضيء مصادر القوة الجبارة التي تشعل نيران الثورة الفلسطينية، ألا.. وهي : قوة الإيمان، ومن ثم.. تتوالى في الأبيات صور الإرهاب الإسرائيلي الوحشي، لتتحداها صور المعجزة الإيمانية:

كل شيّ مات..!
إلا بذرة الإيمان.. مدت جذرها
عبر الفواصل..!
تشرب الدم
تتخطى غرف التفتيش والإيقاف
والأسوار
تمتد إلى قلب المعاقل
فإذا ما حانت اللحظة.. طارت
واستدارت بالحجارة
يا عصافيرا مثارة
جمعوا الألام

صبوها لهيبا في المراجل..!

ولنتأمل هذه الصورة التي توحي بعجز (أبرهة) قديما - و(شارون) حديثا:

لم يعد (أبرهة) يبرم أمرا
الأبابيل التي انقضت.. ومدت ألف منقار إليه
أذهلته.. وأطارت عالما.. كم عاش ينمو في يديه
فجأة
لم يدر.. كيف انهارت الآمال
وانهار الذي أمله فيها لديه..!

إن اللحظة التراثية القرآنية، في فيضها الدلالي، وإيحائها الرمزي، تمتد لتعانق الدلالي والجمالي في رموز تراثية أخرى، ففيض الإيحاء الجمالي في القرآن الكريم، يتناغم مع فيض الإيحاء الجمالي في رمزي: (البتول - مريم-) والمسيح عليهما السلام، وهذا التناغم الإيحائي مما تفيض به إيحاءات هذه القصيدة نفسها (الزحف على حد المستحيل) إنه تناغم يستمد روعته الإيحائية من براعة الشاعر في توظيف هذه الرموز من جهة، ومن قداسة هذه الرموز التراثية التي تتحدى مادية (شارون) النكراء التي لم تدع مقدسا من المقدسات، إلا وحاولت النيل منه..!

إن شاعرنا، وهو يرسم مأساة السلام الذبيح في الأرض المقدسة، ينتقي أروع الصور الموحية بالبراءة والنقاء، والحب والصفاء.. صورة مريم العذراء.. ووليدها.. وهي تحت شجرة النخيل تجسد معجزة الحب والسلام.. في أرض لا تفهم إلا لغة الحقد والدماء..!:

يا مريم
هزي نخلة المهد، ادفعي طفلك
ينطق :
هذه أمي التي لم تقترف إثما
ولم تفعل خطيئة
هذه الأم البريئة
لم تخن عهدا.. ولم تفقد يقينا

يس الفيل

حين جاءت بي إليكم
كنت للأرض البشارة
أبرئ الأكمة والأبرص
أدعوكم.. فمن يسمع صوتي
يا قلوبا من حجارة..!

وينهي الشاعر الصراع الرهيب في هذه القصيدة ذات الطابع الملحمي الرمزي بمقطع يوحي بالنهاية الحتمية للصراع الأبدي.. بين الطير الأبابيل وجيش (أبرهة).. وأطفال الحجارة وترسانة (شارون) النووية.. ينهي ذلك الصراع الرهيب الأقرب إلى الأسطورة بمشهد النصر، إذ سيعود أطفال الحجارة.. تحت راية الإيمان.. إلى القدس والمسجد الأقصى ويطردون المستعمرين الطغاة:

شاخت الغربان.. لكن..
كلما انقضت على الغدر البلابل
واستمات الزحف.. جيلا.. بعد جيل
لن يرى في الأرض شيء ما يسمى مستحيل..!

وتتألق الرموز القرآنية مرة أخرى، في قصائد أخرى، على نحو ما نرى في توظيفه لرموز الأمم البائدة من قوم عاد وثمود في قصيدة (البيت)، وفي قصيدة (عطاء الأمنيات) يناشد الإنسان العربي في هذاالعصر، أن يكون خوذة فوق رأس المقاتل ودرعه، وأن يكون سيف خالد.. إذا امتد يوما لقيصر أدبر..، وهكذا نراه يشيع في رمز شهر رمضان دفقات جديدة من الصور الروحية عن الأذان والتراويح وموائد الرحمن.. كما نراه في قصيدة (تأهبي يا أرض الميلاد) ينتقي لحظات تراثية غنية بالإيحاء في تصوير اللحظات التي سبقت مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام..!

وقد يعمد ذلك الشاعر إلى رموز التراث الجاهلي، فينتقي منها رموزا ليوم من أيام العرب كيوم داحس والغبراء حيث يوظف هذا الرمز لتصوير لهفة انتظار الإنسان العربي المعاصر لفارس عربي يأسو جراح الأمة العربية، وهذا الفارس المخبوء في الظلمات

حين يجيء من خلف الزمان.. على جواد الريح محزونا.. يلملم جرح (داحس) ما بكى ندما على (الغبراء) ويحذف من تقاويم البلاد:

شتات أعوام مضرجة
وأشواقا على الأعواد مصلوبة
ويحفر في حنايا الوحل أخدودا
يواري فيه من سقطوا من الشهداء..!

ولعل من أجمل اللحظات التراثية التي تنتمي إلى التراث الأخلاقي للعالم كله، تلك اللحظة الأخلاقية التي تنتمي إلى الصدق سلوكا وعقيدة وفنا، وهي لحظة عزيزة المنال.. في عصرنا هذا.. عصر الرجال الجوف و الأرض الخراب.. ولكن الشاعر يس الفيل لا يفتأ يتغنى بها، ويعتز بالانتماء إليها، ومن ثم نراه يصور في أكثر من قصيدة في ديوانه هذا، ذلك التمزق النفسي الذي يعانيه الإنسان المعاصر الذي يجد نفسه مرغما على أن يختار إما أن يتعذب حتى الموت وتسد أمامه جميع الأبواب لتمسكه بالصدق مع نفسه ومع العالم أو يفقد إيمانه بنفسه وقيمه ويزيف رؤيته للحياة، فتنفتح أمامه كل الأبواب، وتنساب أمامه كل الأنهار:

تنعدم إلى النهر الأسباب
جوّاب.. ظمئي
جوّاب..!
قلبي
يا سكن الأحباب
ما عدت أهاب
.. الصدق
.. الصدق
يمزقني
يغتال شرايين فمي
أتفجر
تسقط أوردتي
أتشظى فوق جفاف الدرب
أموت وحيدا
أتلاشى.. خلف الأبواب

عبده بدوي

ولكنه يختار في النهاية أن يموت صادقا..!:

الصدق.. الصدق
ولو تغدو أيامك جوعا
أو ظمأ
في ظل سراب
ذُبْ صدقا
وتفجر صدقا
عار أن تحيا كذاب..!

ويؤكد هذه القيمة الأخلاقية في قصيدة أخرى فيقول:

فنحن.. مع الصدق نحيا
وبالصدق نجتاز حد البقاء..!

ولعل من المفيد هنا، أن نشير - بإيجاز إلى أن أهم ما في ديوان (الزحف على حد المستحيل) محاولته استيحاء الرموز التراثية، وبخاصة الرموز القرآنية، استيحاء يقوم على البناء الدرامي بين موسيقى الشعر الحر، وموسيقى الشعر العمودي..!

ونأمل أن تنال قضية الرموز القرآنية الغنية بالإيحاء، مساحة أكبر من الاهتمام لدى أدبائنا وفنانينا ونقادنا المعاصرين، لأن هذه الرموز ما تزال حتى الآن في مجال الإبداع الأدبي والفني، أقرب إلى أن تكون مصادر إشراقات إيحائية، لم يلتفت إليها بالقدر الكافي..!

وقد حاولت في مرحلة الستينات، إثارة هذه القضية في كتابي (حوار مع الشعر الحر) كما حاول أيضا الشاعر الناقد الدكتور عبده بدوي مناقشتها في كتابه: في الشعر والشعراء وقد بدا اعتماده على استخدام الرموز التراثية العربية واضحا في دواوينه (دقات فوق الليل)، و (الجرح الأخير) و (هجرة شاعر) وقد صرح في مقدمة ديوانه (دقات فوق الليل) أنه اتخذ من رموز التراث العربي، ما يشبه (المعادل الموضوعي) لتصوير عمق إحساسه المرير الفاجع بهزيمة (يونيو ١٩٦٧م).

وهذا التوظيف الفني الواعي لرموز التراث العربي هو ما نجده أيضا.. متألقا ومشرقا في ديوان: (الزحف على حد المستحيل).. للشاعر يس الفيل..! ■